اسم الدرس : تفسير سورة المطففين | الجزء الأول

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نستكمل بإذن الله –تعالى– تفسير جزء عم. سورة الانفطار كانت آخر سورة تحدثنا عنها، واليوم نتناول سورة المطففين بإذن الله.

سورة المطففين لها أهمية خاصة لأكثر من سبب:

١– أنها تبعًا لترتيب القرآن الكريم جاءت بعد سورة الانفطار وقبل سورة الانشقاق. نجد سورة التكوير، يليها سورة الانفطار، ثم سورة الانشقاق.. الثلاثة متتابعون، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من سره أن ينظر إلى يوم القيامة رأي العين؛ فليقرأ إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت"[1] ثلاثتهم يصورون يوم القيامة رأي العين.. جاءت سورة المطففين ما بين الانفطار والانشقاق؛ فمن المؤكد أن لها أهمية عظيمة، وجود سورة المطففين وسط الحديث عن أعلى تصور ليوم القيامة يدل على أنها تهتم بموضوع لن يتم إصلاحه بصورة كلية إلا من خلال يوم القيامة **(موضوع التطفيف)**.

٢– اختلف العلماء في سورة المطففين هل هي سورة مكية أم سورة مدنية!؟ وهل يهم هذا الاختلاف؟

نجد أن بعض العلماء قال: إن سورة المطففين من أواخر السور المكية التي أُنزِلت، وبعضهم قال: إن سورة المطففين هي أول سورة مدنية، وآخرين قالوا: إنها نزلت في الطريق بين مكة والمدينة.. فكأن سورة المطففين نزلت في هذه المرحلة (آخر مكة وأول المدينة)، وهذا مهم جدًا، مرحلة الانتقال من المجموعة المؤمنة المتواجدة في مكة حيث لا دولة ولا نظام عام إلى بناء دولة في المدينة؛ إذًا يتضح أن سورة المطففين سورة مهمة تتناول موضوعًا هامًا جدًا.

[1] عن عبدالله بن عمر: من سرّهُ أن ينظرَ إلى يومِ القيامةِ كأنّه رأيَ العينِ فليقرأ إذا الشّمْسُ كُوِّرَتْ وَ إذا السَّماءُ انْشَقَّتْ وَ إذا السَّماءُ انْفَطَرَتْ /الألباني (١٤٢٠ هـ)، السلسلة الصحيحة ١٠٨١ • إسناده صحيح • أخرجه الترمذي (٣٣٣٣)، وأحمد (٤٨٠٦)

بدأت سورة المطففين بـ: (ويلٌ للمطففين(١)) ، بدأت بتهديد وعتاب وتوعد، مثل سورة الهمزة: (ويل لكل همزة لمزة (١)) . ونجد أن السور التي بدأت بالويل –سواء سورة المطففين أو سورة الهمزة– تتحدث عن معاصٍ تؤذي الآخرين.. تتناول التعدي على حقوق الآخرين المادية (التطفيف) أو المعنوية (الهمز واللمز والاستهزاء بالآخرين)

إذًا لماذا تنزل سورة المطففين في أول المدينة أو آخر مكة؟ مرحلة الانتقال، تلك نقطة محورية في فهم سورة المطففين، مرحلة الانتقال من الواقع المكي إلى الواقع المدني.. مرحلة الانتقال من المجموعة المؤمنة إلى بناء الدولة المؤمنة؛ تأتي سورة المطففين في هذه المرحلة تحديدًا.

أولًا: التطفيف عيب من عيوب السوق، فكأن القرآن أراد أن يُعلمهم منذ أول لحظة في المدينة أن الإسلام يدخل في جميع نواحي الحياة، الإسلام لا يتغاضى عن أي نوع من المشكلات كبيرة كانت أم صغيرة، الإسلام يدخل في السياسة، الاقتصاد، الاجتماع، في الحياة الأسرية، له تشريعات في كل نواحي الحياة، من أول لحظة هذا الدين يرفض العلمنة، يرفض الإقصاء عن نواحي الحياة، يرفض المكث في المسجد فقط؛ بل يخرج من المسجد لإصلاح جوانب الحياة (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) [الإسراء: 9] .. يهدي في كل شيء للتي هي أقوم، في النظريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، من أول لحظة لدخول المدينة يُعْلم أهلها أن الإسلام جاء ليحكم في كل نواحي الحياة.. نعم سيتكلم في أخطاء الاقتصاد، سيتكلم في الأخطاء السياسية والاجتماعية، الإسلام سيصلح كل جوانب الحياة.

ثانيًا: عندما تسيطر الدول؛ يزداد تركيزها على الاقتصاد، اليهود دائمًا ما يسيطرون على اقتصاد العالم. أيضًا في المدينة كان لليهود سوق وكانوا يحاولون السيطرة عليه، فتدخُّل الإسلام في إصلاح عيب موجود في السوق يعني أن الاهتمام بالاقتصاد أمر هام في إنشاء الدول. لذا فإن عبارة **"دُلني على السوق"** التي قالها عبد الرحمن بن عوف ليست فقط عبارة زهد في أموال الآخرين والاعتماد على النفس؛ بل هي عبارة بناء دولة، عبارة تساعد في بناء دولة.. "دُلني على السوق" مما يؤكد أنه من الضروري وجود اقتصاد قوي لبناء دولة.

لذا يروى في الأثر عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه عندما ذهب إلى المدينة اختار مكانًا معينًا جعله سوقًا للمسلمين، وقال إن مَن سيتاجر في هذا السوق؛ لن يضرب عليه خراجًا..

يقلل الرسول –صلى الله عليه وسلم– الأعباء الاقتصادية على التجار، ويختص المسلمين بسوق لهم من أجل التشجيع على التجارة.

لما علم كعب بن الأشرف بخبر هذا السوق الخاص بالمسلمين وأراد أن يهدمه؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: "والله لأختارن سوقًا للمسلمين تكون له أغيظ" كما ورد في بعض الآثار.

إذًا لا بد من الاهتمام بقضية الاقتصاد لأن الاقتصاد هو الذي يبني الدولة. لذلك نجد أن غالب الخلاف العالمي بين الدول الكبرى مثل: أمريكا وروسيا هو خلاف اقتصادي في الأساس، خلاف يختص بالفكر الرأسمالي والفكر الشيوعي. الدول أساسا تقوم على الأفكار الاقتصادية.. ونجد أن غالب محاربة قريش للنبي –صلى الله عليه وسلم– كانت بسبب قضايا اقتصادية.. فمن المعلوم أن قريش كانت تسافر رحلة في الشتاء ورحلة في الصيف، كانت القبيلة الوحيدة التي تستطيع السفر من مكة إلى الشام ومن مكة إلى اليمن دون التعرض لأذى أو اعتداء من القبائل أو قطاع الطرق، لِمَ؟ لأن قريش كانت تعقد معاهدات نسمّيها (إيلاف)؛ إيلاف مع كل القبائل في مسيرها من مكة إلى الشام أومن مكة إلى اليمن. كانت المعاهدات تتم بأن تضع كل قبيلة من هذه القبائل صنمها الخاص بها في مكة، ولا يقرب أحد هذا الصنم ويُسمح لأهل القبيلة بزيارته والطواف حول البيت في مقابل توفير الأمن والأمان لقريش أثناء الرحلة.

فلما جاء النبي –صلى الله عليه وسلم– وهدم الأصنام؛ هو بذلك قطع العلاقات الاقتصادية التي قامت عليها قبيلة قريش.

لذلك عندما قال الله عز وجل: (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) ؛ قال بعدها في نفس الآية: (وإن خفتم عيلة) .. لأن طرد المشركين من مكة كان من الممكن أن يسبب ضغطًا اقتصاديًا، فطمأنهم الله –سبحانه– بألا يخافوا من العيلة (أي الفقر).. (فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) [التوبة: ٨٢]
إذًا الاهتمام بالاقتصاد مهم جدًا جدًا في إنشاء الدول.

نلخص سريعًا أسباب نزول سورة المطففين في هذه المرحلة الانتقالية تحديدًا:

١- التركيز على أن هذا الدين عَصيٌّ على العلمنة يرفض العلمنة، وأنه سيُصلح كل جوانب الحياة منذ أول لحظة في إنشاء الدولة الإسلامية في المدينة.

٢- التركيز على أهمية الاقتصاد، وأن عبارة "دُلني على السوق" هي عبارة بناء دولة، ليست مجرد عبارة زهد في أموال الآخرين.

٣- توضيح أن بعض أحكام الدين ستكون مخالفة للأهواء ورغبات النفوس، ودور الدين هو تقويمها والتصدي لها وأن المال المكتسب بطريقة سهلة عن طريق أكل أموال الناس بالباطل سيقف الدين حاجزًا ضدها.

لنبدأ النظر في السورة لأن السورة مهمة؛ حيث أنها تتعلق بالمرحلة الانتقالية كما ذكرنا سابقًا، وهي مرحلة هامة جدًا، لذا سنفاجأ أن السورة أتت بلفظ "المطففين"، لفظ "الفجار"، لفظ "الأبرار"، لفظ "الذين أجرموا"، هذه أصناف من الناس وردت في السورة.

فصنف سمته "المطففين"، وبعد ذلك (كلا إن كتاب الفجار(٧)) ، ثم (إن كتاب الأبرار (٨١)) ، ثم (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون (٩٢)) .

لماذا هذه الأوصاف الأربعة؟

ولماذا أتت بهذا الترتيب؟

ولماذا جاءت "الأبرار" في المنتصف؟

لماذا لم ينته أولًا من المطففين والفجار والمجرمين ثم يأتي بالأبرار؟

هذا كله سنتناوله في ثنايا السورة بإذن الله.

بدأت السورة بـ: (ويل للمطففين (١)) ..

ويل: كلمة توعّد وتهديد ووعيد. وبعض المفسرين قالوا: هو وادٍ في جهنم، وإن كان الأثر لا يصح.

المطففين: نجد هنا أن "المطففين" جمع واسم، فلم يقل: ويل للذين يطففون، ولم يقل سبحانه: ويل للمطفف؛ لا. بل نجد أن هذا اسم، والاسم غير الفعل، فالفعل يفيد التجدد، يحدث أحيانًا ويتوقف أحيانًا، أما الاسم فهو يدل على التمرُّس، كأن هذا العمل صار جزءًا من كيانه وأُطلق عليه لقب (مطفف)، أي أنه لا يطفف أحيانًا وأحيانًا لا؛ بل الميزان من الأساس مصمم للتطفيف، صَنَّع أداة وأتقن صنعها وباعها ونشرها بين الناس لهذا الغرض (غرض التطفيف)، وهذه هي فكرة الجمع في الاسم، أن صارت مشكلة التطفيف منتشرة في كل السوق كاملاً، فأصبح هناك جزء كبير من التجار أدواتهم مصممة لأصل التطفيف، أي صار جزءًا من كيانه وطريقة تجارته.

كنت أتحدث مرة مع أحد الإخوة في هذه السورة، فقال لي: "أتدري أن هناك بعض الأسواق جعلوا عرفًا بينهم أن الكيلو يساوي ٩٠٠ جرامًا وضبطوا مكيالهم على ذلك والناس لا تدري"! فأصبح أن المكيال والميزان من الممكن أن يُصمّموا لنوع من التطفيف والناس لا تشعر.

هذا أول شيء يتعلق بالاسم (المطففين) يدل على التمرس.

النقطة الثانية في الاسم هي الجمع، أن هذا العيب صار منتشرًا في السوق.

لذا يروى في بعض الآثار أن أهل المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم. فلما جاء النبي –صلى الله عليه وسلم– وقرأ عليهم سورة المطففين؛ أصبحوا من أحسن الناس كيلاً إلى يومنا هذا، كما ذكر بعض المفسرين المعاصرين[2].

النقطة الهامة جدًا أيضا –ذُكرت في بعض الآثار– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– نزل وقرأ هذه السورة في السوق، أي نزل بالقرآن للناس في مواطن الخطاب.. السورة موجَّهة إلى أهل السوق خاصةً جزء التطفيف؛ إذًا لابد أن يُخاطب بها أهل السوق، فلا يكون الإسلام في وادٍ بعيد عن الناس ولا يصلهم هذا الكلام.

[2] عن عبدالله بن عباس: لما قَدِمَ النبيُّ ρ المدينةَ؛ كانوا من أخبثِ الناسِ كيلًا، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ، فأحسَنوا الكيلَ بعد ذلك /الألباني (١٤٢٠ هـ)، صحيح الموارد ١٤٨٢ • صحيح

لذلك سنجد أن الله يتحدث عن شخص من الفجار، يكذّب بيوم الدين، معتدٍ –أي يتطاول على الناس– أثيم –أي أصبح يفعل كل الآثام– ويقول الله سبحانه: (إذا تتلى عليه آياتنا) [المطففين:٣١] .. من الذي وَصَل له وقرأ عليه القرآن؟ إذًا أهل القرآن مطالبون بالنزول إلى الناس وقراءة القرآن عليهم، فننزل لأهل السوق نعلمهم أحكام السوق، ننزل لأهل المعاصي نتلو عليهم القرآن ونوضح لهم آيات الله سبحانه وتعالى. (إذا تتلى عليه آياتنا) .. إذًا وصلوا لذلك الذي أسماه الله الفاجر المكذب المعتدي الأثيم وقُرِئَ عليه القرآن.

"**المطففين**": قالوا إنها أتت من كلمة طفيف، أي شيء بسيط، أي أنه عندما يأكل من الناس أو يعتدي على أموالهم لا يأخذ شيئًا ضخمًا؛ بل يسرق شيئًا طفيفًا بحيث لا يظهر، لذلك قالوا إن التطفيف جمع بين الظلم والاختلاس.. الظلم لأنه يأخذ مالاً غير ماله، والاختلاس لأنه يأخذه دون أن يشعر به صاحبه، وفيه لؤم ودناءة لأنه يأخذ شيئًا بسيطًا. وهل هذا يعني أن هذا الشيء البسيط ليس مؤثرًا؟ لا، بالطبع هذا الشيء مؤثر لأن الأصل في أموال الناس أنها حرام عليك، لا يحل لك أخذها. يقول صلى الله عليه وسلم: "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام..."[3] فلا يجوز أن تأخذ منه ولو شيئًا بسيطًا. كلمة "طفيف" يقابلها "عظيم"؛ لذا لما قال سبحانه: (ويل للمطففين (1))؛ قال: (ألا يظُن أولئك أنهم مبعوثون (4) ليوم عظيم(5)). فالذي حسبتم أنه بسيط هو عظيم عند الله: (وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم) . [النور:15].

كيف كان يطفف المطففون؟

لهم وصفان: (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون (2) وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون (3)). فالمطفف له مكيالان، وصارت هذه الكلمة منتشرة الآن: "الكيل بمكيالين"، أي أن

[3] عن عبدالله بن عباس:] أَنَّ رَسولَ اللَّهِ ρ خَطَبَ النَّاسَ يَومَ النَّحْرِ فَقالَ: يا أيُّها النَّاسُ أيُّ يَومٍ هذا؟، قالوا: يَوْمٌ حَرامٌ، قالَ: فأيُّ بَلَدٍ هذا؟، قالوا: بَلَدٌ حَرامٌ، قالَ: فأيُّ شَهْرٍ هذا؟، قالوا: شَهْرٌ حَرامٌ، قالَ: فإنَّ دِماءَكُمْ وأَمْوالَكُمْ وأَعْراضَكُمْ عليْكُم حَرامٌ، كَحُرْمَةِ يَومِكُمْ هذا، في بَلَدِكُمْ هذا، في شَهْرِكُمْ هذا، فأعادَها مِرارًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقالَ: اللَّهُمَّ هلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هلْ بَلَّغْتُ - قالَ ابنُ عَبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنْها: فَوالَّذي نَفْسِي بيَدِهِ، إنَّها لَوَصِيَّتُهُ إلى أُمَّتِهِ، فَلْيُبْلِغِ الشَّاهِدُ الغائِبَ، لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ./البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ١٧٣٩ • [صحيح]

هذا التاجر معه أداة يكيل بها، فإذا أراد أن يأخذ حقه من الناس؛ يستخدم المكيال الأوفى ليأخذ حقه كاملاً، وبعضهم قال: بل يزيد على حقه، وإذا أراد أن يزن للناس؛ يستخدم مكيالاً آخر صغيرًا. وهذا للأسف ليس خلقًا في المعاملات التجارية فقط؛ بل في المعاملات الاجتماعية مع الناس أيضًا، فمثلًا أمدح شخصًا لجماعتي أو حزبي فأستفيض، وأستخدم المكيال الكبير الذي يلتمس الأعذار، وأذكر خيرات أعماله وأقلل من ذكر مساوئه بل لا أذكرها أصلاً، ثم إذا تكلمت عن شخص ليس معي؛ أمحو كل خير فعله، وأذكر مساوئه وأكبرها بعدسة مكبرة ، فهذا كيل بمكيالين. لذلك الإسلام يهتم –خاصةً في هذه السورة في بداية إنشاء الدولة– أنه لا بد أن تكون هناك قواعد ومعايير ثابتة للتقييم. عندما قال الله تعالى: (ويل للمطففين (1)) وذكر أن المشكلة في التطفيف في المكيال، والمكيال هذا أداة التقييم وأداة المعيار، لذلك قال الله –عز وجل– في سورة الحديد: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب و الميزان (25)). لا بد أن يكون لأهل الدين ميزان ثابت لا يتغير للتقييم في الأمور الدينية والدنيوية، فلا بد أن تكون لهم قواعد للتقييم فلا يكون هناك بخس للحقوق. تقييم الشخص إذا كان أهلاً أم ليس أهلاً، وأن أكون أمينًا، لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم–: "إذا ضيعت الأمانة؛ فانتظر الساعة"[4].

ما هو تضييع الأمانة؟ أن يُوسَّد الأمر إلى غير أهله. لم تعد لدينا في الدول الإسلامية معايير للتقييم؛ بل صار الأمر يُقيَّم بالقرابة. لا، لا بد أن تكون هناك معايير(اكتالوا.. كالوهم) تكرار المعيار، وقال الله: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان) . [الحديد:25].. ذكر الميزان بصحبة الكتاب يدل على أنه لا بد أن توضع هذه المعايير من قِبَل أهل الدين، وإلا للأسف أحيانًا نجد الناس يريدون أخذ حقوقهم الدنيوية فلا يجدون هذه الحقوق عند أهل الدين، فيلجؤون إلى غيرهم، ويشعرون أن الدين لا يصلح لهم مشاكلهم الدنيوية، لا يشعرون أن الدين ينتصر للمظلومين من أهل الظلم، فيعتقدون أن الدين لا يملك حلولاً.. لذلك لا بد أن يضع أهل الدين معايير وقواعد ثابتة يُقيَّم بها الإنسان، تكون معايير ثابتة وواضحة وموازين لا تتغير ولا تتبدل وبلا تلاعب في المكيال والكيل بمكيالين.

[4] عن أبي هريرة: إذا ضُيِّعَتِ الأمانَةُ فانْتَظِرِ السّاعَةَ قالَ: كيفَ إضاعَتُها يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: إذا أُسْنِدَ الأمْرُ إلى غيرِ أهْلِهِ فانْتَظِرِ السّاعَةَ./البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٦٤٩٦ • [صحيح]

(الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ) [المطففين:2]

الطبيعي أن الكيل يكون "من" الناس وليس "على" الناس، لكن أتى حرف الجر "على" هنا ليفيد الاستعلاء، كأنه يرى نفسه من طبقة فوق الناس، (على الناس) أي أن الناس أقل منه يأخذ حقه منهم كاملًا ويزيد عليه، وكلمة "على" توحي أيضًا بنوع من القهر والظلم، يأخذ زيادة عن حقه ماديًا ومعنويًا، ماديًا بالغش في المكيال، ومعنويًا بالظلم والقهر.

(يَسْتَوْفُونَ): أي يأخذ حقه وافيًا.. طالما يحب أخذ حقه وافيًا؛ هل يعطي الناس حقوقهم وافية أيضًا؟ لا، بالعكس..

(وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ): أي عندما يعطي الناس حقوقهم؛ ينقص منها.

وهنا لفتة جميلة جدًا. لم يقل الله تعالى: (وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم)؛ بل قال: (وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون)

حرف اللام في "لهم" يفيد الملكية، وحذفه دلالة على أن المطفف ليس قادرًا على الاعتراف بأن المشتري له حق، فتم إسقاط حرف اللام، وهذا جائز في اللغة.

(وَإِذَا كَالُوهُمْ) ليست "كالوا لهم": عدم القدرة على الاعتراف بحقوق الغير..تخيّل أنك تبيع سيارتك.. وتستكثرها على المشتري، وتزيل منها كل الكماليات التي أضفتها إليها، وتريد منه أن يدفع أكثر من ثمنها، لكن إذا انعكس الأمر وأردت شراء سيارة؛ تنقلب الموازين.. تريد منه ترك كل شيء فيها كما هو، فتجد أن المعايير اختلفت تمام الاختلاف.

"رحم الله –عز وجل– امرأً سمحًا إذا باع سمحًا إذا اشترى"[5]، يحب أن يُؤتَى إليه الذي يؤتيه للناس. لكن وللأسف أصبح هناك مشكلة خطيرة جدًا وهي أنه يعامل نفسه معاملة، ويعامل الناس معاملة أخرى.. "يرى أحدكم القذاة في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عين

[5] عن جابر بن عبدالله رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إذا باعَ، وإذا اشْتَرَى، وإذا اقْتَضى/البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٢٠٧٦ • [صحيح]

نفسه"[6] بمعنى أنه يلاحظ النقطة السوداء الوحيدة في جلباب أخيه الأبيض، ويكبرها وينشرها للناس، وهو يحمل جذع شجرة من العيوب ولا يراه!

(الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ () وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ). [المطففين:3,2]

ما الحل إذًا؟ ما الحل مع من يعامل الناس بمعايير مختلفة؟ ما الحل مع من يعامل نفسه بمعيار ويزن لنفسه بمكيال وللناس بمكيال آخر؟ ما الحل؟

الحل هو: (أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ) [المطففين:4]. مجرد الظن كان كافيًا لردع النفس عن كل ذلك، الظن فقط! الظن أنه سيُبعث يوم القيامة، وأن هناك حسابًا ينتظره بعد موته، الظن أن جميع المخلوقات ستُحاسب حتى الحيوانات أعزكم الله. الله –عز وجل– يأخذ الحق للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، ثم يقول لها: "كوني ترابًا". من ظن أن هناك يومًا كهذا؛ لا تُطوع له نفسه التعدي على حقوق الآخرين.

لذا الله –سبحانه وتعالى– يقول وسنذكرها فيما بعد: (أرأيت الذي يكذب بالدين) [الماعون:1]. من الذي يُكذِّب بالدين؟ هل هو من يسجد للصنم؟ لا..الذي يُكذِّب بالدين هو من يتعدى على حقوق اليتامى: (فذلك الذي يدعُّ اليتيم) [الماعون:2]

الدعُّ: لفظ دفع البهائم –أعزكم الله– فهو يدع اليتيم أي يتعامل مع الناس كأنه من طبقة فوقهم، ويزداد في الكبر والاستعلاء مع من لا يقدر على أخذ حقه وليس له من يأخذه له، فيظلم اليتامى ولا يلتفت لحقوقهم.

كيف يجرؤ على هذا الفعل؟ أليس في اعتقاده أن هناك يوم قيامة؟ يوم لا دينار فيه ولا درهم؛ إنما الحسنات والسيئات، ماذا سيفعل يومها؟

(ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون) [المطففين:4] : ألا يظن هؤلاء المبعدون عن رحمة الله – تعالى– أنهم مبعوثون (ليوم عظيم(5))؟ تعامل مع التطفيف كأنه شيء هيّن لا يضر وسيمر،

٦ عن أبي هريرة: يُبصِرُ أحدُكم القَذاةَ في عينِ أخيه، ويَنْسى الجِذْعَ في عينِهِ/الألباني (١٤٢٠ هـ)، صحيح الترغيب ٢٣٣١ • صحيح • أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢١٢)، وابن حبان (٥٧٦١) واللفظ له، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩٩/٤)

لكنه لم يعلم أن الملك –سبحانه وتعالى– الذي يعلم خائنة الأعين علم بهذا التطفيف وكتبه عنده، إلى متى؟

(ليوم عظيم) :(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) [المطففين:6] ، وليس (يقوم الناس للحساب من بعضهم البعض)!

الله –عز وجل– يتولى القصاص واسترداد الحقوق يوم القيامة.. كما جاء في الحديث القدسي: "ثلاثة أنا خَصمهم: رجل حلف بي ثم غدر، ورجل باع حرًا ثم أكل ثمنه، ورجل أجر أجيرًا ولم يعطه حقه"[7].

الشاهد هنا أن الله لن يأتي بالمظلوم في مناظرة مع الظالم؛ لا، بل يقول تعالى: "أنا خصمهم"!.. تمامًا كالذي يأكل الربا كأنه يحارب الله –عز وجل– ويبارزه بالمعاصي.

فيأتي المطفف في هذا اليوم العظيم وهو يظن أن الأمر بسيط وأنه من المستحيل أن يقف مائتي سنة مثلًا بسبب التطفيف البسيط، لا يظن أنه سيؤخذ منه مليون حسنة بسبب التطفيف! سيفاجأ بمعايير مختلفة تمامًا، يوم عظيم تَعْظُم فيه الحقوق.. ويحبس المطفف على القنطرة، لا يدخل الجنة إلا بعد أن يرد كل حبة زائدة أخذها من أخيه دون أن يسمح له بذلك.

(يَوْمَ يَقُومُ) : كلمة "يقوم" هنا مثلما يُقال في المحكمة: "حكمت المحكمة" فيقف جميع الحضور.. ولله المثل الأعلى، سيأتي هذا اليوم العظيم، ويقف الكل للميزان الحق، ليس الميزان الذي كانوا يضبطونه تبعًا لأهوائهم ويتلاعبون فيه كما يحلو لهم.. بل الميزان الحق.

(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ) : إذا كانت كلمة "الناس"هنا يقصد بها المطففون؛ فالله –عز وجل– يُوقف هؤلاء المطففين ليأخذ حقوق الضعفاء منهم.. كما ذكرنا سابقًا: "ثلاثة أنا خصمهم..".

[7] عن أبي هريرة: قالَ اللَّهُ تَعالى: ثَلاثَةٌ أنا خَصْمُهُمْ يَومَ القِيامَةِ، رَجُلٌ أعْطى بي ثُمَّ غَدَرَ، ورَجُلٌ باعَ حُرًّا فأكَلَ ثَمَنَهُ، ورَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أجِيرًا فاسْتَوْفى منه ولَمْ يُعْطِهِ أجْرَهُ./البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٢٢٧٠ • [صحيح]

وإذا كانت كلمة "الناس" هنا يقصد بها العموم؛ فكأن هذا الخُلق نادرًا ما ينجو منه أحد، فكلمة "الناس" توحي بأن غالب الناس ستقف من أجل الحساب على التطفيف سواء في المعنويات أم الماديات..اللهم نجنا برحمتك.

(يَوْمَ يَقُومُ) : يستمر الناس في الوقوف، لا يتحرك أحد، لا يدخل الجنة أحد، ولا يصرف أحد من يوم الحساب. يقول صلى الله عليه وسلم: "لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل..."[8]، لن يتحرك، يظل واقفًا حتى يُسأل عن كل شيء أخذه دون علم صاحبه.

إذًا خُلُق التساهل في التطفيف كان موجودًا في مجتمع المدينة –ذكرنا سابقًا– وأن "المطففين" جاءت اسمًا لتدل على التمرس، وجاءت جمعًا لتدل على الانتشار؛ لكن هذه كلها ليست أعذارًا للتاجر الذي يذهب إلى المدينة، فلا يصح أن يقول في نفسه: (هذا حال السوق كله، الموازين مضبوطة من قِبَل صانعيها دون تدخل مني، أنا لا دخل لي).

لذا جاءت السورة لمواجهة هذا الخلق المنتشر، ومواجهة المنكر العام.. المنكر العام المنتشر لا يُترك، لا نستسلم له ونتركه يتفشى في المجتمع أكثر فأكثر؛ بل ينبغي علينا أن نجاهد هذا المنكر ونبذل وسعنا وننصح ونجاهد؛ إلا إذا اضطررنا، خير ديننا الورع قدر المستطاع، إلا إذا كان هناك ضرورة ملحة، ويشترط فيها أن تكون بفتوى تستفتي فيها ليست حكمًا شرعيًّا.

إذًا بالرغم من أن التساهل في التطفيف كان موجودًا ومنتشرًا؛ إلا أنه لم يكن عذرًا لممارسة هذه الأخطاء، وكان لا بد من تغيير المجتمع.

نراجع سريعًا ما ذكرناه:

بدأت السورة بعتاب شديد: (ويل للمطففين (1)) وجاءت اسمًا وجمعًا.

(الذين إذا اكتالوا على الناس...) يستعلي على الناس، يشعر أنه من طبقة فوقهم.

(يستوفون (2)): يأخذ حقوقه كاملة.

---

[8] عن معاذ بن جبل: لَنْ تَزُولَ قَدَما عبدٍ يومَ القيامةِ حتى يُسْأَلَ عن أَرْبَعِ خِصالٍ عن عُمُرِهِ فيمَ أَفْناهُ؟ وعَنْ شَبابِه فيمَ أَبْلاهُ؟ وعَنْ مَالِهِ من أين اكْتَسَبَهُ وفيمَ أَنْفَقَهُ؟ وعَنْ علمِهِ ماذا عمِلَ فيهِ./الألباني (١٤٢٠ هـ)، صحيح الترغيب ٣٥٩٣ • صحيح لغيره

(وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون (3)): هنا لفتة جميلة ذكرها بعض المفسرين، يقول إنه من الأفضل أن تكيل بمكيالين لكن عكس المذكورين سابقًا.. كيف؟ بمعنى أن تستخدم المكيال الأوفى؛ عند إعطاء الناس حقوقهم، وتتنازل عن جزء من حقك أنت؛ عند أخذه.. كما قال تعالى: (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا) [الفرقان:63]. يتنازل عن حقه، لكن عند إعطاء حقوق الناس؛ يعطيها وافية بل ويزيدهم، وهذا هو الفضل.

أما المعاملة الأقل من الفضل هي معاملة العدل: مكيال واحد، الناس تأخذ حقوقها كاملة، وأنت تأخذ حقك كاملاً، دون زيادة أو نقصان للطرفين.

المعاملة الأقل من معاملة العدل هي التطفيف: تأخذ حقك كاملاً، وتنقص من حقوق غيرك، وهذه هي المعاملة الأدنى المذكورة في السورة، تأخذ حقك كاملاً وتزيد، وتنقص من حقه.

هذه هي مراتب المعاملات الثلاث، الفضل أفضلهم بالطبع: (ولا تنسوا الفضل بينكم) [البقرة:237]؛ لكن إذا نزلنا عن تلك الدرجة؛ ننزل إلى مرتبة العدل، ولا نقرب مرتبة الظلم (التطفيف).

(كلا إن كتاب الفجار لفي سجين (7) وما أدراك ما سجين (8) كتاب مرقوم (9) ويل يومئذٍ للمكذبين). [المطففين:7-10]

كلا.. هؤلاء لا يعلمون حقيقة ما سيحدث، أولا يعلمون حقيقة ما يفعلون.. لذلك كان سيدنا شعيب يقول لقومه الذين يبخسون الميزان: (بقيت الله خير لكم) [هود:86] ما تتركه من حق أفضل عند الله مما تأخذه، هذه معايير دنيوية خاطئة. فيقول تعالى: (كلا)، ما يفعلونه سيجعل أعمالهم تُكتب في كتاب الفجار.

ذكرنا أن التطفيف شيء بسيط، هل الفجار هم نفسهم المطففون؟ أم هم صنف آخر تحدثت عنه السورة بصفة أنهم ذاهبون للمدينة؟ هل هذا الصنف يندرج ضمن الأصناف

المذكورة في بداية سورة البقرة، وهم المؤمنون والكافرون والمنافقون بحيث أصبحت أصناف الناس في المدينة مختلفة عما كانت عليه في مكة؟؟؟

بعض العلماء قال إن الفجار هم نفسهم المطففون؛ لكن من كثرة التطفيف والتساهل في البسيط منه أصبح فاجرًا والعياذ بالله، يتطور الأمر بهذا التاجر المطفف إلى الفجور الذي لا يرقب في مؤمن إلّاً ولا ذمة ولا يكتفي بالتطفيف في الميزان؛ بل يصل إلى سرقة ونهب أموال الناس، وممارسة كل الرذائل الاقتصادية، يفجر في السوق، بل ويتعدى الأمر إلى الفجور في الشهوات، فمن الوارد جدًا أن يتحول التساهل المستمر إلى فجور.

لذا نجد في سورة الانفطار وهي السورة التي تسبق المطففين: (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم (6)) تحدثنا فيها عن الشخص الذي يتعامل بلا مبالاة في حقوق الله، فتجده مثلاً ينام عن صلاة الفجر عمدًا دون ضبط منبه ولا يأبه لضياع الصلاة.. أما هنا في سورة المطففين الحديث عن الذي يتعامل بلا مبالاة في حقوق الناس، يبدأ يطفف ٥٠ جرامًا ثم يجعلها ١٠٠، يُخفي في البضاعة الرديء، لا يرد باقي المال للمشتري ويستمر في تلك الألاعيب الدنيئة إلى أن يفجر.. "ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب؛ حتى يكتب عند الله كذابًا"[9]. أصبح الكذب خُلقًا ثابتًا له، لدرجة أنه يعجز عن قول الصدق في مواضع لا تستحق الكذب، تعوّد الكذب وأصبح خلقًا ملازمًا له، وهكذا مع كل الصفات السيئة.. كأن يسرق وليس محتاجًا، وأن يطفف وليس محتاجًا، وهذه هي الخطورة التي سنتحدث عنها في كلمة "الران".

إذًا كما ذكرنا فالفجار هم أنفسهم المطففون لكن فجروا، وهذا يعتبر وصفًا أعلى، أو هم صنف آخر من الناس وهو صنف المسرف في الشهوات، ونجد أن القرآن غالبًا ما يستخدم مصطلح "الفجار" مع الشهوات.. كما يقول الله تعالى: (لا أقسم بيوم القيامة (1) ولا أقسم بالنفس اللوامة (2) أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه (3) بلى قادرين على أن نسوي بنانه (4) بل يريد الإنسان..)[القيامة 1 : 5]، بمعنى أن الإنسان المنكر ليوم القيامة لا ينكره

[9] عن عبدالله بن مسعود: عليكمْ بالصِّدقِ؛ فإنَّ الصِّدقَ يهدي إلى البِرِّ، وإن البِرَّ يهدي إلى الجنَّةِ، ولا يزالُ الرَّجلُ يصدُقُ ويتحرّى الصِّدقَ حتّى يكتبَ عندَ اللَّهِ صِدّيقًا. وإيّاكم والكذِبَ، فإن الكذِبَ يهدي إلى الفُجورِ، وإن الفجورَ يهدي إلى النّارِ، ولا يزالُ الرَّجلُ يكذِبُ ويتحرّى الكذِبَ حتّى يُكتبَ عندَ اللَّهِ كذّابًا/ابن تيمية (٧٢٨ هـ)، منهاج السنة ٢٦٨/٧ • صحيح • أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) باختلاف يسير.

إنكارًا لقدرة الله؛ بل ينكره لأنه يريد أن يستمر في الشهوات (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) [القيامة: 5]، يريد أن ينفجر في المعاصي (كما تنفجر ماسورة المياه)، يروى عن الحسن البصري أنه قال في هذا النوع من الناس: "يركب رأسه".. لا يريد سماع كلمة "حرام"، فالفجار هم من فجروا في الشهوات.

الصنف الأول (أهل الاقتصاد الفاسد) والصنف الثاني (أهل الشهوات) هذان هما أكثر صنفين موجودين في الدول الفاسدة. فمن المؤكد أنه عند بناء الدولة الإسلامية؛ سيقابلها هؤلاء المسيطرون على الاقتصاد وأهل الشهوات بالعداوة.

الله –سبحانه– بدأ بأهل الاقتصاد المسيطرين على السوق الفاسد، صانعي المكاييل والموازين الفاسدة لتضبط لهم حياتهم– كما يسيطر اليهود حاليًا على الاقتصاد العالمي وفقًا للقواعد التي تناسبهم ويبدلون حسب مصالحهم– هؤلاء أهل الاقتصاد الفاسد أخطر من أهل الشهوات، وسيحاربون المسلمين أشد من أهل الشهوات، لكن الصنفين سيحاربون بناء الدولة الإسلامية.

إذًا عند إقامة الدولة الإسلامية؛ سيواجهك صنفان يرفضان بناءها:

الصنف الأول: المسيطرون على الاقتصاد، لأنهم يعلمون أن الإسلام يضع قواعد ثابتة عادلة.. وبما أن الاقتصاد الخاص بهم قائم على الغش والتطفيف والكيل بمكيالين؛ فحتمًا مصالحه ستتأثر، والبناء الاقتصادي الخاص به سيتأثر أيضًا، فيخاف على كيانه الاقتصادي وعلى ماله. يقول تعالى: (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا) [البقرة:96] أي أحرص على الحياة من المشركين –على قول في الآية.

الصنف الثاني: أهل الشهوات.

هذان الصنفان هم أكثر الناس معارضة لبناء الدولة الإسلامية، ويهاجمان أي جماعة مسلمة تريد إقامة دولة إسلامية صافية بحُكم إسلامي.. أهل الاقتصاد هم الممولون لأهل الشهوات، وهم الممولون للحروب، لذا فهم أكثر من يتصدى لبناء دولة إسلامية، و كما ذكر بعض المؤرخين وكُتاب السِّيَر أن غالب صراع قريش مع النبي –صلى الله عليه وسلم– كان صراعًا اقتصاديًا.

لأنهم قالوا: "لو كانت كلمة؛ لقُلناها"، مما يعني أن الموضوع أكبر من كلمة بالنسبة لهم، هم يدركون تبعات الدين الإسلامي على أموالهم وعلى أهوائهم، يدركون تبعات جملة "لا إله إلا الله" على أموالهم ويعرفون: (إن كثيرًا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل) [التوبة:34]. حتى اليهود يعرفون تبعات جملة "لا إله إلا الله" على أموالهم ، وعلى انتشار الشهوات في المجتمع، يدركون معنى تطبيق الشريعة في هذين الأمرين.

(إن كتاب الفجار لفي سجين) [المطففين:7].

الفجار: سواء كانوا هم أنفسهم المطففين أو صنف ثانٍ (أصحاب الشهوات) يقول الله عز وجل إن أعمال هؤلاء الفجار مكتوبة في كتاب؛ مما يعني أن من يعمل هذه الأعمال؛ سيوسم بوسم ((الفجار)). كأن مثلاً هناك كتاب مكتوب فيه: من يفعل كذا وكذا؛ يكون فاجرًا، ومن يفعل كذا وكذا؛ يكون فاسقًا.. إلخ.

فكتاب الفجار فيه أعمال من يتصف بها يستحق أن يدخل في سجين والعياذ بالله، وسجين: صيغة مبالغة من السجن والضيق والسفال.

فإما أن كتاب الفجار نفسه في سجين حقيقة أو مجازًا، أن هناك كتابًا من يقوم بالأعمال الواردة فيه يستحق أن يدخل في سجين.

إذًا من كان يطفف، و يغش في الاقتصاد، ويفجر في الشهوات، اعتقادًا منه أنه يعيش في سعة من أهوائه وأمواله، فيفاجأ بعكس ما اعتقد، ويجد نفسه يعاقب بنقيض قصده ويدخل في سجين.

(كلا إن كتاب الفجار): وتؤكد "كلا" أن ظنونهم خاطئة وتفكيرهم خاطئ.

(وما أدراك ما سجين): مهما وُصف لنا؛ لن تدرك عقولنا ضيق وسفال ورعب المكان الخاص بسجين، لا شيء يستحق أن تأخذ أموال الناس، لا شيء من الأهواء والشهوات يستحق أن تصل بنفسك إلى هذه المرحلة.

(كتاب مرقوم): قيل كتاب مرقوم أي مختوم عليه

رَقْم: هو علامة أن هذا الكتاب مغلق، لا يزاد فيه ولا ينقص، وأهل الفجور مكتوبون لا يزدادون ولا ينقصون، كتاب ليس فيه تطفيف، عكس المطففين..

أو قيل: كتاب مرقوم عليه أرقام وعلامات، كل شخص له علامة.

بمعنى أنه إما أن يكون هذا الكتاب (كتاب الفجار) كتابًا عامًا لكل الفجار، كتاب واحد به أعمال معينة من يتصف بها ويستحق هذا الرَقْم أو الشكل الخبيث؛ يدخل في المكان (سجين).

أو أن يكون كتابًا خاصًا لكل فرد، كل فرد من الفجار له كتاب وله رقم معين خاص به، فيكون هذا الرقم والعلامة خاصة بفلان. كالدرجات ولله المثل الأعلى، من يصل إلى مرحلة كذا من الفجور؛ له رقم معين، ومن وصل إلى مرحلة كذا من الفجور؛ له رقم آخر. كما نقول في الدنيا: "يبتلى المرء على قدر دينه"[10]. كل فرد منا له مستوى إيماني دقيق جدًا جدًا، البلاء يأتي على قدر هذه الدرجة؛ كذلك الكتاب والرقم الخاص بالفاجر يكون على قدر فجوره. دقة متناهية في الحساب، عكس التطفيف تمامًا، والعكس أيضًا في (كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين (18) وما أدراك ما عليون (19) كتاب مرقوم) [المطففين:18-20] .. من يفعل كذا وكذا من القيم والأعمال والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد؛ يستحق هذا الرَقْم، وهذه المكانة في عليين. الأمر كله درجات ودركات، رزقنا الله وإياكم الفردوس الأعلى من الجنة.

(كلا إن كتاب الفجار لفي سجين (7) وما أدراك ما سجين (8) كتاب مرقوم (9) ويل يومئذ للمكذبين). [المطففين:7-10]

انتقل من مجرد التطفيف إلى الفجور، ومن الفجور إلى التكذيب، هذه هي دركات المعصية، ليس لها نهاية..

[10] يُبتلى المرءُ على حسبِ دِينِه، فإن كان في دِينه صلابةٌ شُدِّدَ عليه البلاءُ، وإن كان في دِينِه رِقَّةٌ خُفِّفَ عنه البلاءُ/ ابن القيم (٧٥١ هـ)، طريق الهجرتين ١٩٣ • ثابت

ذكرنا أن الفجار إما أن يكونوا استكمالاً للمطففين، أو صنف آخر من أهل الشهوات، وأهل الشهوات دائمًا عندهم إشكالية أكل أموال الناس تمامًا كالمطففين.
وكلا الصنفين يخاف من البعث فيلجؤون إلى إنكاره.

المطفف يخاف من يوم القيامة لأنه يعلم أنه سيرد جميع الأموال التي أخذها بالباطل، يردها حسنات وسيئات، وأهل الشهوات أيضًا يخافون البعث، فيلجأ الفريقان إلى إنكار هذا اليوم من الأساس.. تمامًا مثل الطالب الذي لا يذاكر فيلجأ إلى حيلة نفسية مفادها أنه لا يوجد امتحان!

(الذين يكذبون بيوم الدين) : وهذه الكلمة تكررت في سورة الانفطار في وصف الذين يتعاملون بلامبالاة في حقوق الله، أما في سورة المطففين فالحديث عن الذين يتعاملون بلامبالاة في حقوق البشر، أو حقوق الله، يتعاملون بلامبالاة في كل ما يخص الدين. فالذين يكذبون بيوم الدين سيأتون يوم القيامة وهم خاضعون وكل فعل وكل إثم ارتكبوه سيدانون عليه.

(وما يكذب به إلا كل معتد أثيم) : أكثر شخص إنكارًا ليوم الدين هو الحامل لصفتي (معتد أثيم)، وقالوا إن الصفة الثالثة: (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) [المطففين:13].

معتدٍ: أي معتد على حقوق الخلق.

أثيم: أي يفعل الآثام في حق الله سبحانه وتعالى، وبدأت بـ (معتدٍ) لأن السورة في سياق إعطاء البشر حقوقهم بعد أن تناولت سورة الانفطار الحديث عن حقوق الله.

(معتد) أي أنه كثير التعدي على حقوق الناس، ويأكل أموالهم بالباطل.

(أثيم): جاءت صيغة "فعيل"، لم يقل "آثم"، جاءت بصيغة "فعيل" وهي تفيد أن الإثم أصبح صفة شخصية له، صفة فعيل دائمًا تأتي في الصفات الملازمة للإنسان مثل: طويل وقصير؛ لذلك عندما يبلغ شخص ما درجة عالية في الفقه ويتمرَّس به؛ يصفه الناس بالفقيه.. وكأن الفقه أصبح سجية له، أصبح وصفًا ملازمًا له، كل طريقة تفكيره أصبح فيها نوع من الفقه،

فنقول: فَقِه فهو فقيه. وكذلك هذا والعياذ بالله أصبح أثيمًا: أي أن الإثم أصبح جزءًا من شخصيته، أصبح الإثم يجري منه مجرى الدم.

(وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ () إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا* قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ). [المطففين:13,12]

بالرغم من فجوره وتكذيبه واعتدائه وآثامه؛ إلا أن الأبرار لم يتركوه، وذهبوا إليه وقرأوا عليه القرآن، فما كان منه إلا أن قال: (أساطير الأولين).

يقول له الأبرار: إن كنت تكذب بيوم الدين فماذا تقول في كتاب الله؟ كيف تكذب بيوم الدين وبين يديك كتاب معجز؟ وطالما هذا الكتاب معجز فإن هناك إله أنزله وتكلم به، وطالما أن هذا الكتاب أنزل من قِبل إله؛ إذًا فهو يحتوي على أوامر ونواهي ستحاسب عليها، إذًا يوجد يوم قيامة.. يوجد يوم حساب.

الفاجر يريد الخلاص من هذه المنظومة، فيقوم بالتكذيب بيوم الدين، فلما كذب بيوم الدين؛ يقال له: ماذا عن القرآن؟ فيقول إن هذا ليس قرآنًا؛ بل هو أساطير الأولين.

سلسلة من التكذيب كلها هروب نفسي، تحاصره بالأوامر والنواهي فيتفنن في الهروب منك.. لكنه لن يستطيع الهروب يوم القيامة، لن يستطيع الفرار من سجن يوم القيامة (...لفي سجين (7)).

(وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا...) تتلى عليه آية واضحة، وبمجرد سماعها يقول: (أساطير الأولين (13))..كلام خرافات وأساطير وليس له أي قيمة. هو يريد الهروب من إعجاز القرآن لأنه يعلم أنه كلام الله سبحانه وتعالى.

فيقول تعالى: (كلَّا) أي أن هذا الكلام ليس بأساطير الأولين، ولكنه كلام الله عز وجل.

المشكلة الأساسية ليست في القرآن؛ إنما في قلبه، فالله يقول: (كلَّا) هذا الكلام معجز، هذا الكلام آيات بينات، لكن المشكلة أنه أصبح على قلبه ((ران))، لم يعد القرآن يصل إلى قلبه، قام ببناء حائط صد وجدار حديدي على قلبه.

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) : عندما كان يشرب أحدهم الخمر ويصاب بدوار؛ كانوا يقولون: "ران الخمر على عقله".. فأصبح كالمجنون لا يعقل شيئًا ولا يفهم ما يضره وما ينفعه. تمامًا كما يغلب على أحدهم النعاس ولا يقدر على الدفاع عن نفسه وعلى الحركة يُقال: "ران عليه النعاس".

فكلمة الران تعني أن شيئًا ما قد غلب عليه، أصبح خارجًا عن السيطرة، فأصبحت الشهوات تطغى على عقله، لا يعلم ما يضره وما ينفعه، وصل لمرحلة عالية من الانغماس في الآثام.. لايسمع القرآن؛ بل ينفر منه ويستمع إلى الأغاني، لا يقدر على استيعاب ما في القرآن من معانٍ تدك الجبال!

إذًا عندما تجد أن القرآن لا يؤثر فيك؛ اتهم قلبك، ابحث عن المعاصي التي زادت في قلبك. على قدر زيادة المعاصي؛ يبعد الإنسان عن فهم كتاب الله سبحانه وتعالى.

لذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا أذنب العبد؛ نُكِت في قلبه نكتة سوداء، وإذا تاب واستغفر؛ أصبحت نكتة بيضاء"[11] فإذا استمر في المعاصي تتراكم »«« "حتى يصيبه الران على قلبه" وذلك الذي سماه الله –عز وجل– في كتابه..
يبدأ بنكتة سوداء، ونكتة بجوارها، ونكتة أخرى وهكذا.. إلى أن تتكون نقاط كثيرة سوداء فتكون طبقة تحول دون وصول القرآن إلى قلبه.. تكونت طبقة حديدية من الذنوب على قلبه.

(كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا...) ما كانوا ماذا؟ (يكسبون (14)) مكسبه من التطفيف، مكسبه من الشهوات لم يصبح مكسبًا؛ بل أصبح مصيبة.. كل ذنب كان يفرح به ساهم في زيادة طبقة على قلبه، كل تطفيف وكل مال كسبه وكان فرحًا به ساهم في زيادة الران الذي على قلبه.. يزداد الران؛ فيزداد هو في الشهوات إلى أن يصل إلى درجة المنع التام من فهم كلام الله.

الأشد من ذلك: (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) [المطففين:15] .

---

[11] إذا أذنبَ العبدُ نُكِتت في قلبِهِ نُكتةٌ سوداءُ فإن تابَ ونزعَ واستغفرَ صُقِلَ قلبُهُ وإن زادَ زيد فيها حتى يعلو قلبَهُ فذلِكَ الرّانُ الَّذي قال اللَّهُ تعالى كَلّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبونَ/ ابن تيمية (٧٢٨ هـ)، تفسير آيات أشكلت ٣٨٣/١ • صحيح

كما غطى الران على قلبه ومنعه من سماع كلام الله؛ هو أيضًا يغطي على عينه ويمنعه من رؤية وجه الله –سبحانه وتعالى– يوم القيامة. ابتعد عن السماع في الدنيا؛ فابتعد من رؤية وجه الله في الآخرة..إذًا على قدر ابتعادك عن سماع كلام الله؛ تبتعد عن رؤية وجهه – سبحانه– وهذا أشد.. يقول ابن القيم: ***"وأشد من عذاب أهل النار الأليم عدم رؤية وجه الله الكريم سبحانه وتعالى"*** .

لذلك بدأ ربنا –سبحانه وتعالى– العقوبة بالحجب عن رؤية وجهه –عز وجل– قبل: (ثم إنهم لصالو الجحيم) [المطففين:16] فعدم رؤية وجه الله أشد إيلامًا وأشد عذابًا من عذاب النار والعياذ بالله. نسأل الله –عز وجل– أن يرزقنا لذة النظر إلى وجهه الكريم.

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ): بمعنى أنه كان يكسب في جيبه؛ لكن المشكلة تكمن في قلبه.

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يومئذ لمحجوبون) : يتشوق المرء إلى رؤية ربه الذي خلقه وأعطاه كل تلك النعم، ثم يحرم من هذه النعمة العظيمة!

(ثم إنهم لصالو الجحيم):.. يشوى ويقاسي ويعاني وهذا معنى "لصالو".

ثم بعد ذلك يأتي التبكيت مفصلًا: **(ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون)** : (هذا) اسم إشارة للقريب، فعندما يقترب من العذاب؛ يقال له: (هذا الذي كنتم به تكذبون). هذه مطرقة جهنم التي كنت تُكذِّب بها، هذا الثعبان الذي كنت تُكذِّب به في جهنم، هذا السجن في جهنم الذي كنت تُكذِّب به، هذه الحقوق التي سوف تردها وكنت تُكذِّب بها في الدنيا، عذاب التبكيت شديد ومؤلم أيضًا على المستوى النفسي. نسأل الله –عز وجل– أن ينجينا.

نكتفي بهذا القدر، وفي المرة القادمة بإذن الله نكمل النصف الآخر من سورة المطففين.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

جزاكم الله خيرًا.